

كلام في بدء إسلام الإمام علي (ع)

<"xml encoding="UTF-8?">



كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أفضل وأكرم مؤمن عرفه التاريخ الإسلاميّ بل كان في ذروة الإيمان ، وإيمانه ذو مواصفات لا مثيل لها عند غيره من أولي الإيمان ، فهو أوّل من صدّق برسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وإيمانه نقّي خالص لم تشبه شائبة الشرك قطّ ، ولم يشاكلة أحد في ثبات خطاه على الإيمان وقوّة العقيدة .

كان (عليه السلام) – كما أشرنا سابقاً – ينام في فراش النبيّ (صلى الله عليه وآله) منذ الأيام الأولى لحياته . وقد نشأ برعاية النبيّ إيّاه .

وتربّى على الخلق النبوي العظيم والسيرة المباركة . وكان يشهد مراحل النبوة مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) جنباً إلى جنب ، وكان النبيّ يأخذه معه إلى غار حراء ، فتعرّف على أسرار الملكوت . وصرّح في خطبته العظيمة " القاصعة " أنّه كان يرى نور الوحي ، ويسمع رنة الشيطان اليائسة . وعلى مشارف إبلاغ الرسالة نال لقب " الوصي " ، و " الوزير " ، و " الأخ " ، من خلال مرافقته لرسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ولنلحظ تصويره الجميل للرعاية النبويّة . قال : " وقد علمتم مَوْضِعِي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة .

وَصَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنِفُنِي فِي فِرَاشِهِ ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ ، وَيُشَمِّنِي عَرْفَهُ (1) . وكان يَمْضِغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَلْقَمُنِيهِ . وما وجد لي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ . ولقد قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ . ولقد كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ . ولقد كان يجاور في كُلِّ سَنَةٍ بِحِجْرِهِ فَأَرَاهُ ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي . ولم يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما . أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمّ ريح النبوة .

ولقد سمعتُ رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله) فقلتُ : يا رسول الله ، ما هذه الرنة ؟ فقال : هذا الشيطان قد أيس من عبادته . إنك تسمع ما أسمع ، وترى ما أرى ، إلّا أنّك لست بنبيّ ، ولكنك لوزيرٌ وإنّك لعلّى خير " (2) .

وقال ابن أبي الحديد - في بيان قوله (عليه السلام) : " إِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ " - : " ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أَنَّهُ لم يولد في الجاهليَّة ؛ لَأَنَّهُ ولد (عليه السلام) لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل ، والنبيِّ (صلى الله عليه وآله) أُرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل .

وقد جاء في الأخبار الصحيحة أَنَّهُ (صلى الله عليه وآله) مكث قبل الرسالة سنين عشرين يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ، وكان ذلك إرهاباً لرسالته (عليه السلام) ، فَحُكِمَ تلك السنين العشر حكم أيَّام رسالته (صلى الله عليه وآله) ، فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولَّى لتربيته مولود في أيَّام النبوة ، وليس بمولود في جاهليَّة محضة ، ففارقت حاله حال من يُدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل .

وقد روي أَنَّ السنة التي ولد فيها عليّ (عليه السلام) هي السنة التي بُدئ فيها برسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فأسْمِعِ الهتاف من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ، ولم يخاطب فيها بشيء .

وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبثُّل والانقطاع والعزلة في جبل حِراء ، فلم يَزَلْ به حتى كُشف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحي . وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتيمَّن بتلك السنة وبولادة عليّ (عليه السلام) فيها ، ويسمِّيها سنة الخير وسنة البركة ، وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهيَّة ، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً : " لقد وُلد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة " .

وكان كما قال صلوات الله عليه ؛ فَإِنَّهُ (عليه السلام) كان ناصره والمحمامي عنه وكاشف الغمَّاء عن وجهه ، وبسيفه ثَبَتَ دين الإسلام ، ورست دعائمهُ ، وتمهَّدت قواعده " (3) .

ويقول الكاتب المسيحي الشهير جورج جرداق : " وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أوَّل الدعوة احتكاماً للعقل وتخلُّصاً من الوثنيَّة ؛ وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفَّق بها رسالة محمَّد ، واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه ؛ وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبيِّ امتثالاً للواقع وتزلفاً للمنتصر كما هي الحال بالنسبة لأكثر الأمويِّين ؛ إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانيَّة ، وتتَّحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن ، فإنَّ عليّ بن أبي طالب قد ولد مسلماً ؛ لَأَنَّهُ من معدن الرسالة مولداً ونشأةً ، ومن ذاته خلقاً وفطرةً . ثمَّ إِنَّ الظرف الذي أعلن فيه عمَّا يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته ، لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر ؛ لأنَّ إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها . فإنَّ الصبيِّ ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه ، حتى أدَّى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله دون أن يستأذن أو يستشير .

لقد كان أوَّل سجود المسلمين الأوَّل لآلهة قريش !

وكان أوَّل سجود عليّ لإله محمَّد !

إِلَّا أَنَّهُ إِسْلَامُ الرَّجُلِ الَّذِي أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَنْشَأَ عَلَى حَبِّ الْخَيْرِ وَيَنْمُو فِي رِعَايَةِ النَّبِيِّ وَيَصْبِحَ إِمَامَ الْعَادِلِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَرَبَّانِ السَّفِينَةِ فِي غَمْرَةِ الْعَوَاصِفِ وَالْأَمْوَاجِ " (4) .

يَتَبَيَّنُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ - وَهُوَ غِيْضٌ مِنْ فَيْضٍ ، وَيُمْكِنُ مِلَاحَظَةُ حَقَائِقَ كَثِيرَةٍ تَدْعُمُ مَا أوردناه - مَا يَأْتِي :

1 - يَعُودُ إِيمَانُ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَى السَّنِينَ الَّتِي سَبَقَتْ الْجَهْرَ بِالرَّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

2 - تَبَايَنَتْ أَقْوَالُ الْمُؤَرِّخِينَ فِي عَمَرِهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) حِينَ تَصْدِيقِهِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) بَيْنَ الثَّمَانِ (5) ، وَالتَّسْعِ (6) ، وَالْعَشْرِ (7) ، وَالْإِحْدَى عَشْرَةَ (8) ، وَالْإِثْنَتَيْ عَشْرَةَ (9) ، وَالثَّلَاثَ عَشْرَةَ (10) ، وَالْأَرْبَعَ عَشْرَةَ (11) ، وَالْخَمْسَ عَشْرَةَ (12) ، وَالسَّتَّ عَشْرَةَ (13) .

وإن دَلَّ هَذَا عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَحْدِيدِ عَمَرِهِ فِي مَوْقِفِهِ مِنَ الرَّسَالَةِ فَحَسْبُ ، وَإِلَّا فَإِنَّ رُوحَهُ الطَّاهِرَةَ لَمْ تَتَلَوَّثَ بِالشَّرِكِ قَطُّ (14) . وَهَكَذَا قَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي جَوَابِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ عَمْرِهِ الْإِمَامِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عِنْدَ إِيمَانِهِ : أَوْ كَانَ كَافِرًا ؟ إِنَّمَا كَانَ لِعَلِّيٍّ حَيْثُ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَشْرَ سَنِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمُئِذٍ كَافِرًا (15) .

وَنُضِيفُ إِلَى أَنَّ مَا نُقِلَ عَنْ أَنَّهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ ابْنُ عَشْرِ سَنِينَ حِينَ تَصْدِيقِهِ بِالرَّسَالَةِ يَعِدُّ مِنْ أَصَحِّ الْأَخْبَارِ وَأَشْهَرِهَا (16) .

3 - مِنْ هُنَا لَا مَرَأَ فَيَمُنُ كَانَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ! فَبَعْضُ الصَّحَابَةِ أَسْلَمَ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مَضَتْ عَلَى الرَّسَالَةِ ، وَبَعْضُهُمْ أَسْلَمَ بَعْدَ بَرَهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . أَمَّا عَلِيٌّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَدْ كَانَتْ رُوحَهُ مَعْطَّرَةً بِعَبِيرِ الْوَحْيِ مِنْذُ أَيَّامِهِ الْأُولَى ، كَمَا كَانَ يَعْرِفُ مَعَالِمَهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَقَدْ أَلْفَهُ وَتَمَرَّسَ عَلَيْهِ ، وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنَّهُ رَافِقُ أَوَّلِ قَبْسٍ تَأَلَّقَ مِنْهُ بِلَا تَأْخِيرٍ .

وَالآنَ أَيُّ شَأْنٍ لِأَقْوَالِ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ أَنْ يَسْتَهْنِئُوا بِإِيمَانِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَصَغَرِ سَنَتِهِ ؟ ! لَيْتَ لِعِلْيَةِ الْقَوْمِ الْمُسْتَنِينَ قَلِيلًا مِنْ تِلْكَ الْفُطْنَةِ ، وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَخُلُوصِ الْقَلْبِ ، وَلِيَتَهَمَ أَلْفُوا نُورَ الْوَحْيِ !

4 - نُقِلَتْ رَوَايَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ كَثِيرَةٌ فِي عِبَادَةِ الْإِمَامِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَصَلَاتِهِ . وَلَا تَدُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى بَعْدَ النَّبِيِّ فَحَسْبُ ، بَلْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَبَقَ الْآخَرِينَ إِلَى الْعِبَادَةِ بِثَلَاثٍ أَوْ خَمْسٍ أَوْ سَبْعِ سَنِينَ أَيْضًا . وَيُمْكِنُ أَنْ تُشِيرَ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ إِلَى عِبَادَتِهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَبْلَ الْبَعْثَةِ أَيْضًا (17) (18) .

(1) الْعَرَفُ : الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ (النِّهَايَةُ : 3 / 217) .

(2) رَاجِعٌ : عَلِيٌّ عَنْ لِسَانِ عَلِيٍّ / الْمَكَانَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ / الْقَرَابَةُ الْقَرِيبَةُ .

(3) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ : 4 / 114 .

(4) الْإِمَامُ عَلِيٌّ صَوْتُ الْعَدَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ : 38 .

(5) التَّارِيخُ الْكَبِيرُ : 6 / 259 / 2343 ، السَّنَنُ الْكُبْرَى : 6 / 339 / 12160 ، تَارِيخُ دِمَشْقَ : 42 / 25 ، الْمَعْجَمُ

الْكَبِيرُ : 1 / 95 / 162 كُلُّهَا عَنْ عُرْوَةٍ ، تَارِيخُ بَغْدَادَ : 1 / 134 / 1 عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ ، الْاسْتِيعَابُ : 3 /

199 / 1875 عن أبي الأسود .

(6) الطبقات الكبرى : 3 / 21 عن محمد بن عبد الرحمن بن زرار ، تاريخ دمشق : 42 / 26 عن محمد بن عبد الرحمن بن زرار وحسن بن زيد وأبي نعيم ، المعارف لابن قتيبة : 168 عن ابن إسحاق ، تاريخ الطبري : 2 / 312 ، الكامل في التاريخ : 1 / 484 ، البداية والنهاية : 3 / 25 والثلاثة الأخيرة عن الكلبي ، شرح نهج البلاغة : 13 / 235 عن الشعبي .

(7) الكافي : 8 / 339 / 536 عن سعيد بن المسيب عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) ؛ المستدرک علی الصحيحين : 3 / 120 / 4580 ، الاستيعاب : 3 / 199 / 1875 ، دلائل النبوة للبيهقي : 2 / 165 ، شرح نهج البلاغة : 13 / 235 ، تاريخ الطبري : 2 / 312 والخمسة الأخيرة عن ابن إسحاق وص 314 ، أسد الغابة : 4 / 89 / 3789 ، السنن الكبرى : 6 / 339 / 12162 والثلاثة الأخيرة عن مجاهد وح 12161 عن ابن إسحاق ، البداية والنهاية : 3 / 26 عن ابن إسحاق ومجاهد .

(8) الكامل في التاريخ : 1 / 484 عن ابن إسحاق ، السنن الكبرى : 6 / 340 / 12163 ، تاريخ دمشق : 42 / 26 كلاهما عن شريك ، شرح نهج البلاغة : 14 / 235 عن عبد الله بن سمعان عن الإمام الصادق (عليه السلام) وعن عبد الله بن زياد وكلاهما عن الإمام الباقر (عليه السلام) .

(9) الاستيعاب : 3 / 199 / 1875 عن أبي عمر .

(10) الاستيعاب : 3 / 199 / 1875 عن أبي عمر وص 200 / 1875 عن ابن عمر .

(11) تاريخ دمشق : 42 / 26 عن المغيرة ، شرح نهج البلاغة : 13 / 234 عن جرير وحذيفة .

(12) تاريخ خليفة بن خياط : 150 ، الاستيعاب : 3 / 199 / 1875 ، تاريخ دمشق : 42 / 27 كلّها عن الحسن ، العقد الفريد : 3 / 312 عن أبي الحسن ، شرح نهج البلاغة : 13 / 234 عن خباب بن الارت والحسن وعبد الرزاق ومعمر وقتادة .

(13) فضائل الصحابة لابن حنبل : 2 / 589 / 998 ، السنن الكبرى : 6 / 340 / 12164 ، المصنّف لعبد الرزّاق : 5 / 325 ، المعجم الكبير : 1 / 95 / 163 ، تاريخ دمشق : 42 / 27 كلّها عن الحسن وغيره وفيها " هو ابن خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة سنة " ، المستدرک علی الصحيحين : 3 / 120 / 4581 عن الحسن وفيه " أسلم عليّ وهو ابن عشر أو ابن ستّ عشرة سنة " ، الاستيعاب : 3 / 199 / 1875 عن أبي عمر .

(14) راجع : لم يكفر بالله طرفة عين .

(15) راجع : عمره يوم أسلم .

(16) لأنّه (عليه السلام) – على المشهور – ولد بعد عام الفيل بثلاثين سنة (راجع : القسم الأول / الولادة /

المولد) وأيضاً – على المشهور – كان عمره (عليه السلام) يوم استشهد في سنة (40) سنة (راجع :

القسم الثامن / من الاغتيال إلى الاستشهاد / تاريخ شهادته) ومجموعهما يدلّ على أنّه (عليه السلام) كان ابن عشر سنين عند البعثة .

(17) راجع : الخصائص العمليّة / إمام المصلّين / أوّل من صلّى مع النبيّ .

الخصائص العمليّة / إمام العابدين / أوّل من عبد الله من الأمّة .

(18) نستثني من الذين سبقهم الإمام (عليه السلام) إلى الإيمان والعبادة خديجة (عليها السلام) ، إذ يحتاج هذا الموضوع إلى دراسة مستقلة .